مقالة في القربان المقدَّس والمعموديَّة منسوبة إلى القدِّيس أثناسيوس الرسوليّ ذكَرَها أبو شاكر ابن الراهب

الأب سمير خليل سمير اليسوعيّ*

هدانا الله ليلةً إلى القلاّية الأسقفيَّة في سوهاج، فاستقبَلَنا السيِّدُ المطران أحسنَ استقبال. ثمّ دار الحديث حول آباء الكنيسة، وأخَذْنا نسترجع بعضَ الذكريات في خبايا المكتبات. وأعلمني أبنا أندراوس[1] (أطال الله بقاءه) أنَّ لديه صورةً شمسيَّة لأحد مخطوطات المكتبة الڤاتيكانيَّة. فطار عقلي تشوُّقًا، وطلبتُ إليه أن يُرِيَني النصّ، فلبَّى دعوتي.

وكم كانت دهشتي عظيمة! إذ وجدتُ نفسي أمامَ مخطوطٍ نفيس، يحوي «كتاب البرهان في القوانين المُكمِلَة والفرائض المهمِلة» لأبي شاكر ابن الراهب أبي الكرم بطرس ابن المهذَّب. مخطوط نفيس، إذ هو مكتوب «بخطّ مصنِّفه، يوم الثلثاء السادس من أبيب سنة تسع مائة وثمانٍ وتسعون [كذا] للشهداء الأطهار، الموافق الثالث والعشرين من ربيع الأوّل سنة إحدا [كذا] وثمانون [كذا] وستمائة للهجرة» (ورقة ٢٢٨ ب من المخطوط)، أي يوم ١٢٨٢/٦/٣٠م.

(*) باحث في التراث العربيّ المسيحيّ والإسلاميّات. أستاذ هذين الاختصاصين في جامعات بيروت وروما.

(١) هو اليوم غبطة بطريرك الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة، أبنا إسطفانوس الثاني (غطّاس). وقد تمّ اللقاء معه في سوهاج (بصعيد مصر) في شهر فبراير/ شباط ١٩٧١ م.

فعندئذٍ تحزّاتُ، وطلبتُ إلى سيّدنا أن يُعيرني الصورة فلم يبخل بها.

وفي أثناء عودتي إلى الميا، أخذتُ أتصفّح المخطوط في القطار. فاكتشفتُ مقالةً للقدّيس أثناسيوس الرسوليّ، عن القربان المقدّس والمعموديّة. فها أنا أقدّمها اليومَ إلى القارئ الغيور، شاكرًا أفضال سيّدنا المطران.

* * *

و«كتاب البرهان» هذا، ألّفه أبو شاكر سنة ٩٨٧ للشهداء الأطهار، أي سنة ١٢٧٠ ـ ١٢٧١ ميلاديّة. وهو يتألّف من خمسين مسألة، تغلب عليه الصبغة الفلسفيّة اللاهوتيّة. واقتدى أبو شاكر بمنهج غيره من القبط، لا سيّما بصديقه المؤتمن أبي إسحق ابن العسّال، صاحب كتاب «مجموع أصول الدين، ومسموع محصول اليقين»[1]، إذ أورد في كلّ باب شواهدَ عديدةً لمن سبقه من المفكّرين، تأييدًا لرأيه.

ونظرًا إلى أهمّيّة ابن الراهب، أفرد له الدكتور عادل سيداروس كتابًا، وضعه باللغة الألمانيّة سنة ١٩٧٥ في نحو ٣٠٠ صفحة، وصَفَ فيه «كتاب البرهان» هذا وحلّله (ص ٩٧ ـ ١٨٢)[2]. كما يجد القارئ أهمّ المراجع في «تاريخ الأدب العربيّ المسيحيّ» لجورج جراف[3]، (باللغة الألمانيّة).

أمّا النصّ الذي نُقدّمه اليومَ، فهو مأخوذ من المسألة السادسة عشرة: «في القربان، الذي هو جسد المسيح ودمه». وهو باب طويل، يشغل ٥٧ صفحة من المخطوط (من ورقة ٦٠ب إلى ٨٨ب)، وينقسم إلى تسع مقالات: الأولى لأبي شاكر نفسه، والثماني الأخرى لآباء الكنيسة المتقدّمين والمتأخّرين.

---

(١) راجع مقالة «في الآجال» لحنين بن إسحق للأب سمير خليل سمير [وقد سقط الاسم الأخير سهوًا في الطبعة]، في مجلّة «المشرق» ٦٥ (١٩٩١) ص ٤٠٣ ـ ٤٢٥، لا سيّما ص ٤١٤ ـ ٤١٦.

(٢) راجع: Adel Y. SIDARUS, *Ibn ar-Rāhibs Leben und Werk*. Ein Koptisch-arabischer Enzyklopädist des 7./13. Jahrhunderts, coll. «Islam kundliche Untersuchungen» 36 (Freiburg: Klaus Schwarz Verlag, 1975).

(٣) راجع: Georg GRAF, *Geschichte der christlichen arabischen Literatur*, II, coll. «Studi e Testi» 133 (Vatican, 1947) p. 428–434.

أمّا نصّ أثناسيوس، فهو الثالث من الثمانية، ويقع في الورقتَيْن ٦٧ب ـ ٦٨أ من مخطوط الڤاتيكان عربيّ ١٠٤ Vaticano arabo 104. وقد حاولنا أن نجد الأصل اليونانيّ لهذا النصّ بين مؤلّفات أثناسيوس الرسوليّ، فلم نوفّق إلى الآن. كما أنّ جورج جراف[1] وعادل سيداروس[2] لم يُوفّقا في إيجاد الأصل اليونانيّ.

ويبدو لنا أنّ النصّ مترجم من اللغة القبطيّة، لا من اليونانيّة. ودليل ذلك استعمال كلمة «تهيو» في الجملة الأولى. فهي بلا شكّ قبطيّة الأصل. وربّما كان صوابُها «تهتو»، من كلمة ⲧⲁϩⲧ، ونعو «الرصاص». ومن المعلوم أنّ بعض الوثائق القديمة كانت تُكتَب على صفحات رصاصيّة.

ويلاحظ القارئ أنّ النصّ الذي جاء في المخطوط مشحون بالأخطاء اللغويّة، بخلاف ما نلاحظه في باقي المخطوط. ولا يمكننا أن ننسبَ تلك الأخطاء إلى الناسخ، إذ إنّ هذا الناسخَ هو أبو شاكر ابن الراهب نفسه. وتفسير ذلك أنّ أبا شاكر نقل هذه المقالة على علاّتها، كما وجدَها في النسخة المنقول منها، دون أيّ تغيير لفظيّ فيها. ويؤكّد هذا الرأي ما قلناه عن كلمة «تهتو»، فقد كتبها المؤلّف «تهيو» كما وجَدَها. فاقتَفَيْنا أثره، والتزَمْنا منهجه، ولم نبدّل نصّه، إنّما أشرنا في الحواشي إلى الصواب.

وأخيرًا نُلحق صورة للصفحة التي ننشرها اليوم، مأخوذة من مخطوط ابن الراهب نفسه المحفوظ في المكتبة الڤاتيكانيّة تحت رقم «عربي ١٠٤» (ص ٦٧ب ـ ٦٨أ).

(١) أطلب المرجع السابق، ج ١ (١٩٤٤)، ص ٣١٤ رقم ١١.
(٢) أطلب المرجع المذكور في الحاشية ٣، ص ١١١.

نصّ المقالة المنسوبة إلى القدّيس أثناسيوس

[١ ـ سرّ القربان]

١ إنّه مثل قرطاس يُعمل من التهنو[١]. فهو يسمّى «قرطاس»[٢]. فإذا كتب فيه الملك كتابًا، لم[٣] يُسمَّى حينئذٍ «قرطاسًا»، بل «كتاب» الملك، ويُقبَّل.

٢ هكذا الخبز والخمر هما، قبل الدعاء والتقديس، خبز وخمر. فإذا تمّ عليهما التقديس والدعاء والابتهال، نقلته موهبةُ الله الكلمة الذي دُعي، و[نقله] التقديس باسمه، [فـ]ـانتقلا[٤] إلى جسده ودمه.

* * *

٣ وكمثل الصوف الأبيض الذي لم يُصبَغ، فهو يسمّى «صوفًا». فإذا صُبغ بعقاقير، وأُخرج ملوّنًا، واتُّخذ منه أرفع الألوان [٦٨أ] فنُسج منه للملك ثوبًا، لم يسمَّ[٥] ذلك بعدُ «صوفًا»، بل «ثوب» الملك.

٤ هكذا موهبة الله الكلمة تنزل على هذا الخبز والخمر، بالتقديس والدعاء، بطهارته، وتُتمِّمه. وتُحرِّكه روحُ القدس، فيصير الخبزُ جدًا للمسيح، ويصير الخمرُ الذي في الكأس دمه.

٥ وتتّصل الموهبة، ولا تنقطع. وتحلّ فيه القوّة كلَّ حين، ولا تفارقه.

---

(١) خ: التهير. وكلمة «تهنو» قد تكون تعريب كلمة ⲧⲁϩⲛⲱ القبطيّة، التي تعني «رصاص». راجع قاموس CRUM القبطي، ص ٤٦٢ أ.

A Coptic Dictionary, compiled with the help of many scholars by W[alter] E[wing] CRUM (Oxford: Clarendon Press, 1939).

(٢) صوابها: قرطاسًا.

(٣) صوابها: لا.

(٤) خ: انتقلا.

(٥) صوابها: لا يُسمّى.

٦ فأمّا الكأس، فلم يستقم[1] أن يُخلَف منه شيء، لأنه ممزوج بالماء. وإن تُرك، تغيّر وصار خلاً بالضرورة. فلهذا يُنفَق بأسْره، ولا يُخلَف منه شيًا[2].

[٢ ـ سرّ المعموديّة]

٧ وأمّا ماء المعموديّة المقدَّس، فلن تفارقه الموهبةُ في كلّ حين، لأنّ له الطهارة الدائمة.

٨ وممّا أحيي به القول، وأزيده قوّةً وثباتًا، أنّه كان في الابتداء قوم من أهل الإسكندريّة (من بعد القراءة والصلاة التي تُعمل على المعموديّة، وقبل أنْ يعملَ فيها أحدًا[3]) يأخذون إناءً نظيفًا، فيملؤوه[4] من ماء المعموديّة، ويتركوه[5] في الموضع المقدَّس محفوظًا. ٩ حتّى إذا أدرك مولودُ الموتَ قبلَ أن يُعمَّد، عمَّدوه من ساعته بذلك الماء. لئلاّ يطولَ الأمرُ في إقامة قدّاس على المعموديّة، فيموت المولودُ قبلَ الفراغ منه.

١٠ فإن فرغ ذلك الماء قبل حضور وقت تُعمل فيه معموديّة، صبّوا عليه ماء (وبهذا وقفنا على صحّة هذا الخبر من كتاب قديمًا[6] لهم)، إلى أن يعملوا المعموديّة أيضًا على مَهْل. فيُصبّ فيها ماءٌ يبقى في ذلك الإناء، ويعمِّدوا[7]. وماء المعموديّة، فيُسَيَّب بعدَ الفراغ، ويُطلَق.

١١ ثمّ عطل هذا الرسم الذي قدّمنا ذكرَه، من أجل الزيت الذي فيه. لئلاّ، إذا بقي في الإناء، يتزلّج من كثرة الزيت الذي فيه، فيحصل بين الأيّهات مشاجرة في ذلك.

---

(١) صوابها: فلا يستقيم.
(٢) صوابها: شيء.
(٣) صوابها: أحد.
(٤) صوابها: فيملؤونه.
(٥) صوابها: ويتركونه.
(٦) صوابها: قديم.
(٧) صوابها: ويعمّدون.

في ذاته وخاصته حتى يفهم انه كلمة وليس جسدا. لان جسد صار
انسانا واتخذ جسده الذي له النفس الروحانية البسيطة.
واحب ان تتألم به وتموت من غير مفارقة منه. ولا يدخل على لاهوته
مضرة البتة. فذلك ليس يجب ان يكون ولذلك شيء طبيعة كلمة
ليفهم ما قبله الله الكلمة من الالام والموت والمصايب بجسده
ولاهوته لم يفترق ولم يتغير ولم يتبدل ولذلك جسده
وان بانت قدرة لاهوته ظهرت فيه. فانه لم يتغير ولم يتبدل
ظاهرا على حاله. هذا هو راي الارتذكسيين معلي البيعة. فاما عن
الخبز كيف يصير جسد الله الكلمة. فما ان الطير اذا افترش على
البيض تحول حرارته على ذلك البيض فيتولد منه حيوان
ويخرج فرخ له عظم ولحم وريش وطير. لذلك اذا دعا القس
وابتهل الى الله الكلمة وسأله يبعث روح قدسه على الخبز
الذي بين يديه. فتقلب حرارة روح التقديس ذلك الخبز الى جسد
الله الكلمة المتأنه الثالثة من قول القديس اثناسيوس الرسولي ان
انه مثل قرطاس يعمل من التمر. فهو يسمى قرطاسا. فاذا كتب
فيه الملك هاتا لم يسمى حينئذ قرطاسا. بل كتاب الملك ويقبل
هذا الخبز والخمر. هاتا قبل الدعا والتقديس خبزا وخمرا
فاذا تم عليهما التقديس والدعا والابتهال. تقلبت موهبة
الله الكلمة الذي دعي والتقديس باسمه. انتقلا الى جسده ودمه
ومثل الصوف الابيض الذي لم يصبغ. فهو يسمى صوفا.
فاذا صبغ بعقاقير واخرج ملونا واتخذ منه ارفع الالوان

فتح منه للملك ثوبا لم يزد له بعد صوفا بل ثوب الملك هذا
موهبة الله الذي نزل على هذا الخبز والخمر بالتقديس عند الدعاء
بطهارته وتمته. وتخرله روح القدس فيصير الخبز جسد المسيح
ويصير الخمر الذي في الكاس دمه. وتحمل الموهبة ولا تنقطع.
وحل فيه القوة كل حين ولا تفارقه. فاما الكاس فلم يستقر
ان تخلف منه شيء لانه ممزوج بالماء. وان قل كثير وصار خلا
بالضرورة. فلهذا ينفق باسره ولا تخلف منه شيا. واما
المعمودية المقدس فلن تفارقه الموهبة في كل حين لان له الطهارة
الدايمة. ومما احي به القول وازيده قوة وثباتا. انه كان
في الابتداء قوم من اهل الاسكندرية من بعد القراءة والصلاة
التي تعمل على المعمودية وقبل ان يعمل فيها احدا. ياخذون انا
نظيفا يملوه من ماء المعمودية ويتركوه في الموضع المقدس محترظا.
حتى اذا ادرك مولود الموت قبل ان يعمد عمدوه من ساعته
بذلك الماء. ليلا يطول الامر في اتمامه قراءة على المعمودية فيموت
المولود قبل الفراغ منه. فان فرغ ذلك الاناء قبل حضور وقت
تعمل فيه معمودية صبوا عليه ماء وبهذا وقفنا على صحة هذا
الخبر من كتاب قد تقدم الينا ان يملوا المعمودية اينما على محل
فيصب فيها ما يبقى في ذلك الاناء ويعمدوا. وما المعمودية
فيستقى بعد الفراغ ويطرح ثم غطل هذا الرسم الذي قدمنا
ذكره من اجل الزيت الذي فيه. ليلا اذا بقي في الاناء يخرج من
لثوة الزيت الذي فيه. فيحصل بين الابحاث مشاجرة في ذلك

مخطوط فاتيكان عربي ١٠٤ مكتوب بخط يد المؤلف سنة ١٢٨٢م (ص ٦٧ ب - ٦٨ ا)

صدر حديثًا عن «دار المشرق»